باب ما جاء في "الهروب"

الثقافة العربية بمجموعها الكلي، على قدر كبير من الغنى والسعة، يجعل الباحث عن أي شيء - غالباً - يحصل له على شاهد منها، ومن ذلك مفردة الهروب، التي أراد المحرر أن ينطلق منها إلى آفاق تقاريره الهاربة من الفناء وغبرة النسيان والجحود.

ولكثرة ما يرد في الهروب ومعانيه كـ"الفرار، والتولي"، لا يدري المنقب ما يأخذ من ذلك وما يدع، ففي التنزيل - مثلاً - نجد ربنا عز وجل، يحكي عن سيدنا موسى عليه السلام أنه لما ألقى بعصاه واستحالت ثعباناً عظيماً ﴿**ولى مدبراً ولم يعقب**﴾، أي لم يلتفت من شدة فرقه(*). أي خوفه، وهو كناية عن الهروب الشديد، الذي حين يبصره المرء وهو في أمان، لا يملك إلا أن يستغرق ضاحكاً من المشهد، لكن المولى الذي ألقى على موسى محبة منه، طمأنه بأن ﴿**أقبل ولا تخف إنك من الآمنين**﴾، كما فعل بأمه من قبل عندما ألقته في اليمّ، وأصبح فؤادها فارغاً، حناناً وخوفاً على وليدها، حتى كادت أن تفشي وتبدي سرّ الحكمة الربانية، لولا أن السنن الإلهية، ليست كخطط بوش في العراق، ولا خطط التنمية

(*) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ص٣٦٢.

العـربيـة، إذ لم تتحـمل أن ترى ضناها بين الناس تتقـاذفه الأيادي النظيفة والقذرة، بعد أن استحال (لقطة) يتردد صداها بين الناس، فلم يلبث أن انتهى النبي الصبي إليها، لتقر به عيناً ولتعلم أن وعد الله حق.

وكان النبي الجليل قبل توليه مدبراً، خوفاً من الثعبان المرعب، كـان له هروب آخـر، سـمـاه القـرآن خـروجـاً، عندمـا وكـز الـرجل المشـاغب، فنُصح بـالخـروج من مـصـر، ليلقى الرجل الصـالـح في مدين، والذي اتخذه أجيراً عشر حجج، مقابل أن ينكحه فتاته التي شهدت ابتداءً بأمانة النبي الكليم وقوته، عندمـا سقى لها نَعـمها على البـئـر فـعـرضت على والدها اسـتـئـجـاره، فكانت هي الأجـر، وهاهنـا سـؤال: هل بقـيت فـتـاة في الكون تسـتـحق أن يرعى فـتى الشـيـاه ١٠ أعـوام، مـهـراً لهـا؟ وهل في كل الأجنـاس البـشـــرية الراهنة، صـادق في وفـائه كـمـوسـى؟ المثيـر أن الوعـاظ من النسـاء والرجال معاً جعلوا من يوسف -عليه السلام- وحده أسطورة للعفة، ولم يطـروا نبـيـاً أجلّ وأعفَّ، هو مـوسى كليم الله، فـإن كـان يوسف عفّ عن الحرام المتاح بعد أن همّ به، فإن موسى كان أعلى كعباً في طلب العـفـاف والإخـلاص والتضـحـيـة في ســبيل فتـاة مـدين التي أحبته.

ومن أطرف قصص الهروب والفرار، مـا يروى عن الأعراب في هذا الشـأن، وهو في كتب الأدب كثيـر جداً، وربما وُجدت له نظائر

في العصر الحديث، ومن ذلك ما عايشه المحرر شخصياً يوليو ٢٠٠٦، في مدينة كانوا النيجيرية، إذ أشار مضيفه موسى بن حامحاما إلى جارية سمراء في ناحية من البيت، قال إن فتى مثيراً تزوجها، وأخذها من بيت أسرتها إلى منزله في أحد أحياء المدينة التي يتجاوز سكانها ١٠ ملايين نسمة، وقبيل طلوع الشمس في اليوم التالي، أتى الزوج يشتكي حالة الفتاة إلى أهلها، قبل أن يخبرهم بأنها فرت هاربة منه! وحاول أن يذكر بعض الأسباب التي دفعتها إلى ذلك وإن اعتقد أنها غير منطقية، لكن موسى أكد أن السبب الحقيقي هو الخوف من بطش الفتى المتعافي جنسياً.

وهي حالة لها سلف، كما نقل ابن القيم في كتابه روضة المحبين، أن الخرائطي قال: "حدثنا عمارة بن وثيمة قال: حدثني أبي قال: كان عبدالله بن ربيعة من خيار قريش صلاحا وعفة، وكان ذكره لا يرقد، فلم يكن يشهد لقريش خيرا ولا شرا، وكان يتزوج المرأة فلا تمكث معه إلا أياما حتى تهرب إلى أهلها، فقالت زينب بنت عمر بن أبي سلمة: مالهن يهربن من ابن عمهن؟ قيل لها: إنهن لا يطقنه، قالت: فما يمنعه مني فأنا والله العظيمة الخلق الكبيرة العجز؟ قال فتزوجها فصبرت عليه وولدت له ستة من الولد"(*).

وهناك جوانب أخرى من الهروب الاجتماعي والسياسي، اشتهرت في الأول قصص الفتيات الهاربات من أسرهن،

(*) روضة المحبين، ص٢١٤.

والخادمات إلى جهات غير معروفة، وفي الثاني، هروب المعارضين السياسيين من أوطانهم. وبين أنواع الهروب بون شاسع مثل الذي بين الهاربين. ويبقى الملجأ دوما إلى الله، الذي وجه عباده بأن يفروا إليه(*).

(*) إشارة إلى الآية الكريمة من سورة الذاريات ﴿**ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين**﴾ آية رقم ٥٠.